مجلة علم النفس – اكتوبر ١٩٥٢

فقدان الأسنان فى الأحلام

بقلم

نجيب يوسف بدوى

المدرس بطنطا الثانوية للبنات

١ – حلمان . ٢ – المؤثر الحسى . ٣ – التأويل الشعبى . ٤ – رأى أصحاب التحليل النفسي . ٥ – خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين . ٦ – وظيفة خلع السن عند البدائيين . ٧ – تفسير جديد لحلم فقدان الأسنان . ٨ – تطبيق هذا التفسير على التأويل الشعبى .

١ – حلمان

الحلم بسقوط الأسنان أو خلعها من « الأحلام النموذجية » التى يحلم بها كثير من الناس بطريقة متشابهة . وقد انتابنى هذا الحلم فى العطلة الصيفية الماضية مرتين . والمدة بين الحلم والآخر حوالى شهرين . وقد عنيت بتدوين الحلمين عقب الحلم الثانى مباشرة . وكان الدافع إلى هذا الاهتمام هو تكرار الحلم بصورة متشابهة مرتين ووضوحه فى الحالتين وضوحاً تاماً ؛ حتى بدأ مجسما وكأنه حقيقة واقعة . ودليل ذلك أن أول ما فعلته ، عند ما استيقظت ، أن تحسست أسنانى لكى أتأكد هل فقد منها شىء . وسررت فى الحالتين عند إدراكى أنها سليمة . وقد أغرانى وضوح حلم سقوط السن ، وغرابته ، وتكراره مرتين بتدوينه ، ففعلت . وأنقل فيما يلى مما كتبت عقب تكرار الحلم للمرة الثانية :

الحلم الأول : بينما كنت فى القاهرة ، حلمت – على أثر الإكثار من أكل

الجبن فى العشاء بأن جزءاً من سنتى الأمامية فى المقاطع العليا قد انكسر . وبدا فى الحلم أن سبب الكسر وجود مادة غريبة فى فمى . ناولتنى صغرى أخواتى إبريقاً به ماء لمضمضة فمى لإزالة هذه المادة الغريبة . واستيقظت وأنا فى شدة العطش .

أما الحلم الثانى فكان فى طنطا . على أثر الإكثار من تناول الجبن القديم مع طعام الغذاء ، والنوم بدون عشاء . حلمت بأن أكثر من سنة واحدة تقلقلت وبصفة خاصة سنة فى المقاطع العليا هى التى حاولت جاهداً طوال الحلم أن أبقى عليها فى موضعها . وطلبت من الدكتور ألا يخلعها وأن يحاول علاجها . وفجأة وجدت أنى خلعتها فى يدى وسبب لى ذلك كثيراً من الضيق . كذلك بدا لى فى أثناء محاولتى الاحتفاظ بالسن فى موضعه أن جزءاً منه كأنه من بلورات الملح . واستيقظت وأنا فى شدة الظمأ والحلم ملء رأسى ، فتحسست أسنانى ؛ وسررت لأنها سليمة . ثم دونت الحلمين .

٢ — المؤثر الحسى

وحين نظرت فى الحلمين وجدت الظروف التى أحاطت بهما متشابهة ، وبصفة خاصة حدوثهما عقب أكل الجبن الحادق ، والشعور بالعطش الشديد عند الاستيقاظ . ومن ثم ألح علىّ التفسير بالمؤثر الحسى الداخلى . ويلوح أن ثمة ارتباط بين الملوحة الشديدة فى الفم ، نتيجة الإكثار من أكل الجبن ، والحلم بفقدان الأسنان . مثل هذا الارتباط استُدْعِى نتيجة للانطباع القديم الذى تركه تبديل الأسنان منذ أن كنت طفلا حين اعتدت عقب خلع أى سن وضع فص ملح خشن مكانها ليقف النزيف . وانطبع هذا الارتباط بين الملح وخلع السن . فعند ما أكثرت من أكل الجبن الحادق ، أستدعى هذا الانطباع القديم ؛ وأثار الإحساس بالملوحة الشديدة الحلم بسقوط السن . واستيقظت فى كلا الحالين وأنا فى شدة العطش .

أقنعت نفسى بهذا التفسير إلى حين ، لإدراكى أن تفسير الأحلام على أساس المؤثر الحسى لا يكون غالباً سوى تفسير جزئى . فإذا نجح المؤثر الحسى فى إثارة الحلم ، فإنه لا يشرح حقيقته ولا يكون وحده تعبيراً كافياً له . ويتعذر القول فى الأحلام بالسببية البسيطة : فليست كل أكلة جبن أو طعام حادق ، يصحبها حلم بسقوط أو خلع سن . كما أن سقوط أو خلع سن فى الحلم لا يشترط

أن يكون نتيجة لأكل الجبن (كما تصادف فى هذين الحلمين) . فالحلم ظاهرة نفسية ، ويفيد من المؤثر الحسى . فقد ينجح المؤثر الحسى فى التمهيد لبداية الحلم ، وقد يتحد مع سياق الحلم ، ويدخل ضمن مشموله النفسى ، لأن الحلم يحاك من مكنونات النفس .

٣ — التأويل الشعبى

ويعتبر العامة سقوط السن فى الحلم من النذر الباعثة على التطير . ففى التأويل الشعبى ينبىء خلع السن فى الحلم عن وفاة قريب . ولهذا الاعتقاد نص فى تفسير ابن سيرين . وهذا النص هو : « وأما الأسنان فإنهم أهل بيت الرجل فالعليا هم الرجال من أهل البيت والسفلى هم النساء . فالناب سيد بيته والثنية اليمنى الأب والثنية اليسرى العم ، وإن لم يكونا فأخوان أو ابنان . فإن لم يكونا فصديقان شقيقان . والرباعية ابن العم . والضواحك الأخوال والخالات ومن يقوم مقامهم فى النصح . والأضراس الأجداد والبنون الصغار . والثنية السفلى اليمنى الأم واليسرى العمة فإن لم يكونا فأختان أو ابنتان أو من يقوم مقامهما . والرباعية السفلى بنات العم وبنات العمات . والناب السفلى سيدة أهل بيتها . والضواحك السفلى بنات الخال والخالة . والأضراس السفلى الأبعدون من أهل بيت الرجل من النساء والبنات الصغار . وحركة بعض الأسنان دليل على من هو تأويله فى المرض . وسقوطه وضياعه دليل على موته أو غيبته عنه غيبة من لا يعود إليه . »(١)

والاعتقاد بأن سقوط سن أو خلعه فى الحلم ، يدل على وفاة قريب ، من المعتقدات الذائعة الانتشار التى يشاركنا فيها شعوب كثيرة . كما أنه اعتقاد قديم كان معروفاً منذ عهد أرطميدورس اليونانى فى القرن الثانى للميلاد . وقد أورد الدكتور توفيق الطويل فى كتابه « الأحلام » تفسير هذا الحلم ، كنموذج للتشابه فى تعبير الأحلام ، فى العصور المختلفة ، وبين الشعوب المختلفة . « يعبر فقدان الأسنان فى الأحلام عند سكان إفريقيا الوسطى عن فقدان زوجة أو طفل أو أحد الأقارب . وهو فى أرطميدورس فقدان أحد من أفراد الأسرة ، والأسنان عنده متصلة بالأطفال وإمساك الأسنان الساقطة من فم إنسان ، يعبر عن فقدان الأطفال

(١) « منتخب الكلام فى تفسير الأحلام » لمحمد بن سيرين — دار الطباعة الخديوية ، ببولاق — سنة ١٢٨٤ هـ . ص ٦٣ .

بالموت أو بغيره . ووجد الأستاذ « سليجمان » Seligman أن فقدان الأسنان يؤول فى كل مكان تقريباً ، بمعنى فقدان قريب أو صديق . أما عند المسلمين فإن الأسنان أهل بيت الرجل وفراشه أى زوجته وأقاربه كذلك ، فالعليا ترمز للرجال من أهل بيته ، والسفلى للنساء ، والناب سيد بيته » . . . إلى آخر الأهل والأقارب كما أوردنا ، فى النص المقتبس عن ابن سيرين . « وضياع الأسنان وسقوطها إلى الأرض موت أو غيبة لا عودة بعدها » ص ٢٠٠ .

وتأويل الرمز الواحد تأويلا متشابهاً عند سكان إفريقيا الوسطى فى العصر الحديث ، وعند اليونان فى العصور القديمة ، وعند المسلمين فى العصور الوسطى ، يرجع إلى « وحدة العقل البشرى» ونزوعه إلى التفكير المتشابه فى كل زمان ومكان ... ص ٢٠١ . على أن التسليم بوحدة العقل البشرى ، لايمنع من قيام عدوى الأفكار ، وانتقالها من شعب إلى شعب ، ومن عصر إلى عصر . . . ص ٢٠٢ . وبين أنصار المصدر الواحد ، وأنصار المصادر المتعددة ، أو بين أنصار التوزيع ، وأنصار التطور القائلين بوحدة العقل البشرى ، جدل طويل يعرفه كل من أخذ من الأنثروبولوجيا بقسط .

٤ — رأى أصحاب التحليل النفسى

على الرغم من تشابه تأويل حلم فقدان الأسنان بأنه ينذر بوفاة قريب ، وعلى الرغم من ذيوع هذا التأويل وقدمه ، فإن أنصار التحليل النفسى لا يلتفتون إلى حوادث المصادفة الخارجية التى قد تحدث أو لا تحدث فى المستقبل ؛ وإنما يبحثون عن مغزى الحلم فى الدوافع اللاشعورية .

ونعرض فيما يلى آراء بعض أعلام التحليل النفسى فى تفسير هذا الحلم نقلا عن فرويد[1] .

« لقد خفى عنى معنى الأحلام بسقوط الأسنان التى كثيراً ما كان على أن أحللها لمرضاى ، مدة طويلة لأنها كانت دائماً ، مما أثار دهشتى ، تستعصى على

(١) S. Freud: "The Interpretation of Dreams;" Allen & Unwin. Pp 362-369

التأويل . ولكن اجتمع لدىَّ أخيراً من الأدلة القاطعة ، ما أقنعنى بأن القوة الدافعة لهذه الأحلام عند الرجال ما هى إلا رغبات المراهقة فى الاستمناء »(١) .

« وأعتقد أن التحويرات المألوفة لهذا الحلم النموذجى — كأن يخلع شخص آخر السن من فم الحالم — يجعلها نفس هذا التفسير مفهومة . ويؤوِّل شتيكل خلع شخص آخر السن فى الحلم من فم الحالم ، بالإخصاء . ويقول مثل ذلك فى قص الشعر . وربما كان من الصعب فهم كيف تأتى لحلم فقدان الأسنان هذا المغزى . ولكنى فى هذا المقام يحسن أن ألفت النظر إلى « الإبدال من أسفل إلى أعلى » وهو الحيلة التى يفيد منها الكبت الجنسى ، والتى تتحقق بواسطتها الإحساسات والنوايا ، فى حالة الهستيريا ، التى موضوعها النصف الأسفل من الجسم ، فى أعضاء أخرى منه ، ليس منها حرج . (٢) »

« ولن أدعى أن تأويل أحلام فقدان الأسنان : بأنها أحلام الاستمناء (وصحة ذلك لا أستطيع أن أشك فيها) قد خلا من الغموض . إنى أتقدم فى التفسير إلى الحد الذى أستطيعه ، وأترك الباقى دون حل . » وما يعنيه فرويد بهذا الغموض يشير إليه فى هامش نفس الصفحة فيقول : « يرى يونج أن حلم النساء بفقدان الأسنان له مغزى أحلام الوضع . ويؤيده فى ذلك أرنست جونز . والعنصر المشترك بين هذا التأويل وتأويل شتيكل السالف الذكر . هو أنه فى كلا الحالين (الإخصاء — الولادة) انتزاع جزء من كل الجسم . »

فكأن حلم فقدان الأسنان من الأحلام الجنسية : يؤوله فرويد بأنه إفصاح عن الرغبة فى الاستمناء . ويؤوله شتيكل بأنه تعبير عن الإخصاء . وهكذا نرى أننا وضعنا أنفسنا فى موقف لا نحسد عليه : رأى أنصار التحليل النفسى فى الحلم صريح ، ومع هذا نروى الحلمين ! ما أصدق نصح القدماء حين قالوا :

لا تقص الرؤيا إلا على عالم أو ناصح . ولا تقصها على جاهل أو عدو أو حاسد(٣) كان من الممكن إغفال ذكر الحلمين . أو لعلنا كنا نحسن صنعاً لو نسبناهما إلى غائب . غير أننا آثرنا أن ننشد الحقيقة خالصة ، ولا سيما أن الصفوة الذين

---

(١) Ibid., P. 326.

(٢) Ibid., P. 364.

(٣) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ٨ من المقالة الحادية عشرة ، ص ١٨ .

نقص عليهم الرؤية يشجعون التزام الأمانة العلمية . وإذا كان لنا فى الموضوع الذى نتصدى لبحثه . خبرة أصيلة ، فهل نمسك عن ذكرها لمثل هذه الاعتبارات الواهية ؟ يضاف إلى ذلك أننا نذهب فى تأويل هذا الحلم مذهباً جديداً . وإذا صح هذا التفسير الجديد . اتضح أنه ليس فى هذا الحلم ما يدعو إلى الحرج ! وقد يحلو للبعض أن يوجه إلينا بهذا التفسير الجديد ، تهمة « المقاومة » التى تعتبر من الأدلة فى صالح تفسير أنصار التحليل النفسى . على القارىء الناقد أن يتدبر هذا التفسير الجديد . ليتأكد أنه ليس للاعتبار الشخصى دخل فيه .

٥ ــ خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين

من العادات الغريبة لدى بعض الجماعات البدائية المعاصرة ، تحطيم سن أو اثنين من المقاطع الأمامية فى الفك العلوى ، فى طقوس تنصيب المراهقين والاحتفال بختانهم . وهذه العادة عند سكان أستراليا الأصليين(١) ، وعند الزنوج فى إفريقيا من قبائل البانتو الجنوبيين(٢) . وتتلخص طقوس تنصيب المراهقين فى عزل الفتيان الذين بلغوا فى معسكر خاص بهم ، حيث يتمرسون على بعض الأعمال والحرف ، ويجتازون اختبارات عديدة لتعويدهم قوة الاحتمال ، ويلقنون تقاليد القبيلة وعاداتها والنواهى الخلقية والمحرمات والأمور المقدسة فيها . كل ذلك وهم بمعزل عن بقية القبيلة . ويحظر على النساء والأطفال الاقتراب منهم . وقبل أن يسمح لهم بالتمتع بحقوق الرجال ، والاندماج مرة ثانية فى القبيلة ، يقام حفل لتنصيبهم . وفى هذا الحفل يمثلون قتل المراهقين ، وبعثهم من جديد : ويجرى لكل مراهق عملية الختان . ثم يخلع لكل منهم سن من المقاطع الأمامية فى الفك العلوى . وليست جميع طقوس المراهقين مصحوبة بتحطيم السن . فكثير من الجماعات البدائية تمارس طقوس التنصيب بدون عادة خلع السن . كما أن هناك اختلافات فى تفاصيل هذه الطقوس ، بين الجماعات المختلفة . ولكنها ، بوجه عام تشترك فى تلك المظاهر التى لخصناها .

---

(١) B. Spencer & F.J. Gillen : "Initiation Ceremonies"; in An Outline of Anthropology, edited by V.F. Calverton, Modern Library. P. 281.

(٢) C.G. Seligman : "Races of Africa"; The Home University Library, 1939, P. 188.

تحتاج هذه العادة الغريبة ، وهى خلع السن عند البدائيين ، إلى تفسير وقد بحثنا فى كتب الأنثروبولوجيا ، التى تناولت موضوع طقوس تنصيب المراهقين بالدراسة ، عن تفسير لهذه العادة الغريبة ، فلم نعثر إلا على تفسير واحد لروجيه باستيد ، سنناقشه بعد قليل .

ونعتقد أننا إذا استطعنا تفسير عادة البدائيين فى خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين ، فإن هذا التفسير قد يلقى لنا ضوءاً على مغزى حلم فقدان الأسنان . فللطقوس البدائية والأساطير دوافع لاشعورية . كما أن أصحاب التحليل النفسى ربطوا طرائق التفكير عند البدائيين وتفكير اللاشعور . والموازنة بين الأحلام النموذجية من ناحية ، والأساطير والطقوس من ناحية أخرى ، مسموح بها من الناحية المنهجية . وباصطناع هذه الطريقة . استعار روجيه باستيد فكرة الرموز الجنسية من فرويد ، وطبقها على هذه الظاهرة الأنثروبولوجية وهى خلع السن فى طقوس التنصيب . يقول : « هناك علاقة بين خلع السن لدى غير المتحضرين وبين الختان ، وتكاد تكون هذه العملية نوعاً من العمليات الرمزية التى أشار إليها فرويد . فهى إذن طقوس جنسية . »(١)

وإذا كان روجيه باستيد يفسر المجهول بالمعلوم : فيستعير فكرة معلومة من التحليل النفسى ، ويطبقها على هذه الظاهرة الأنثروبولوجية المجهولة الدوافع ، نحاول نحن أن نعكس الترتيب فى هذه الطريقة : بأن نعتبر دوافع الحلم هى المجهولة . ولنبدأ — متحررين من أية نظرية سابقة — فى تفسير خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين . ونعتقد أن من الممكن تفسير هذه الظاهرة الأنثروبولوجية تفسيراً أنثروبولوجياً . مثل هذا التفسير قد يلقى ضوءاً على الظاهرة النفسية وهى حلم فقدان الأسنان .

والنقد الأساسى الذى يوجه إلى تفسير روجيه باستيد هو أنه ينسب هذا الطقس البدائى إلى مبدأ موجه ثابت ، وفكرة جاهزة مسلم بها مقدماً هى فكرة فرويد عن الرموز الجنسية . هذا بالإضافة إلى أن خلع السن فى طقوس البدائيين مصحوب بالختان ، وليس بديلا عنه ، حتى يقال أنه من الرموز الجنسية . ويلوح أن هذا الحكم المتسرع نتج عن خطأ منهجى هو : عزل هذه الظاهرة الأنثروبولوجية (وهى

---

(١) « مبادىء علم الاجتماع الدينى » تأليف روجيه باستيد ، وترجمة دكتور محمود قاسم — مكتبة الأنجلو المصرية . ص ١٤٤ .

خلع السن وقت الختان) من مشمولها فى وحدة الحضارة . وقد أدى انتزاعها وعزلها على هذا النحو ، إلى إغفال وظيفتها فى وحدة الطقوس القبيلية . أى أن اقتطاع هذه الظاهرة أدى إلى عدم تتبع العلاقات الوظيفية الداخلية بينها وبين بقية طقوس تنصيب المراهقين ، والعلاقات التى بينها وبين بقية مظاهر الحضارة ، التى تكوّن وإياها وحدة . علينا حينئذ أن نبحث عن الوظيفة التى يحققها تحطيم السن فى طقوس تنصيب المراهقين .

٦ ــ وظيفة خلع السن عند البدائيين

إذا بحثنا عن وظيفة هذا الطقس البدائى ، وجدنا أنه لا يحقق للفرد الذى يتعرض له أية فائدة ؛ إذ أنه تشويه وإيذاء له . إنما يحقق هذا الطقس غرضاً للكبار المهيمنين على شئون القبيلة ، ويقوم بوظيفة هامة للسلطة .

فللأسنان التى تخلع فى طقوس تنصيب المراهقين قيمة سحرية . وتعتقد هذه الجماعات البدائية أن العلاقة تستمر بين المراهق وسنه المخلوعة . فالسن جزء يرمز للكل . وسن الشخص رمز للشخص نفسه . وما يتعرض له الجزء ، يحل كذلك بالكل عن بعد . ومثل السن المخلوعة كمثل الخصلة من الشعر أو بقايا الأظافر التى يحرص أفراد هذه القبائل البدائية على ألا تقع فى يد عدو أو كائد ؛ لاعتقادهم أن من وقع فى حوزته هذه الأشياء ، وأراد بصاحبها سوءاً ، استطاع أن ينال منه ويؤثر فيه عن بعد : فكل ما يتعرض له الجزء ، يحل أيضاً بالكل أى بصاحبه . ويطلق فريزر على هذا الضرب من السحر اسم : « السحر بالاقتران » وهو ينطوى ، فيما يرى ، على التطبيق الخاطىء لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران[١] . ويعتقد سكان أستراليا الأصليين أنه إذا دفن السن المخلوعة أسفل شجرة أو ألقى فى النهر ، لا يصاب صاحبه بسوء . أما إذا جرى عليه النمل ، أصيب صاحبه بمرض فى فمه[٢] . ومن الملاحظات التى لها مغزى فى هذا الصدد ، لأنها تبين لنا وظيفة هذه العادة ، أن شيوخ بعض القبائل ورؤساءها فى أستراليا يحتفون بالأسنان المخلوعة فى طقوس تنصيب المراهقين[٣] . وتنتقل هذه الأسنان من شيخ إلى آخر فى الخفاء ومع

---

(١) J.G. Frazer : Magic and Religion. London : Watts, 1944, P. 61.

(٢) Ibid., P. 61.

(٣) Ibid., P. 62.

الحذر الشديد بحيث لا تتعرض للمواد التى لها تأثير سحرى مثل أحجار الكوارتز ، وذلك حرصاً على سلامة الفتيان . وهذه القيمة السحرية التى للسن ، هى الوظيفة الأولى التى تحققها هذه العادة الغريبة للسلطة الضابطة فى القبيلة . فالسن بمثابة (الأثر[1]) أو الجزء الذى يرمز للكل فى طقوس (السحر بالاقتران) . ويحتفظ شيوخ الجماعة بهذا (الأثر) كرهينة يستطيعون بواسطتها أن يتحكموا فى مصير الفتى . لأن من امتلك السن فكأنما امتلك زمام الشخص . واستطاع به ، إذا أراد ، أن يتحكم فى مصيره عن بعد . فالوظيفة الأولى لخلع السن هى قيمته عند شيوخ القبيلة للأغراض السحرية .

يحقق خلع السن عند البدائيين غرضاً ثانياً هو أن خلع السن فى طقوس التنصيب عمل عنيف يصحبه إطلاع المراهق على الأمور المقدسة والأسرار والمحظورات أو التابو . فهو طقس رمزى ، وخبرة مؤلمة ترتبط بالتابو ارتباطاً شرطياً . وتترك هذه الخبرة المؤلمة فى نفس المراهق أثراً موقراً كفيلا بأن يتذكره كلما سولت له نفسه أن يحيد أو أن يستخف بالتابو . وموقف البدائى بإزاء التابو موقف مزدوج متناقض ambivalent ؛ لأن التابو ينهاه عن خلق له فيه رغبة . ولفظ تابو نفسه — كما يقول فرويد[2] — لفظ مزدوج متناقض : لأن كل محظور لا بد وأن يكون موضع رغبة . ولأن ما لا يرغب فيه أحد ، لا ضرورة لمنعه . فالوظيفة الثانية لخلع السن عند البدائيين هى الربط الشرطى بين التابو وخلع السن بحيث تكفل هذه الخبرة المؤلمة عدم خرق التابو .

وهكذا يظهرنا التحليل الوظيفى لطقوس تنصيب المراهقين على أن خلع السن فى هذه الطقوس البدائية يحقق للسلطة الضابطة فى القبيلة غرضين ، تفسرهما الرمزية والشرطية . وهذان الغرضان هما : القيمة السحرية للسن ، والربط الشرطى بين خلع السن والتابو . فهذه العادة الغريبة ليست منفصلة بل مترابطة مع بقية عناصر الحضارة ، ولها وظيفة . فهى جزء من الطقوس التى تلجأ إليها هذه الجماعات البدائية للحافظة على تقاليدها ونظامها . وتضمن السلطة فى القبيلة غرس هذه التقاليد واستمرارها ، باتخاذ الوسائل التى تكفل ضبط سلوك الأفراد وطاعتهم . ومن بين هذه الوسائل تحطيم السن فى طقوس التنصيب . فوظيفة هذه العادة الغريبة

---

(١) « السحر » فى مجلة علم النفس عدد يونيو سنة ١٩٥٠ مجلد ٦ .

(٢) S. Freud : Totem and Taboo. Pelican, P. 97.

ليست للفرد وإنما للسلطة الضابطة . لنأخذ حينئذ فى الحسبان هذا الغرض وهو : أن خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين يحقق للسلطة الضابطة فى هذه الجماعات البدائية وظيفة هامة .

٧ — تفسير جديد لحلم فقدان الأسنان

إذا طبقنا هذا الفرض على حلم فقدان الأسنان ، وجدناه إلى الأحلام الحصرية أقرب منه إلى أحلام تحقق الرغبات . ويُعبر حلم فقدان الأسنان بطريقة مسرحية عن الصراع بين الرغبات المكبوتة والقوى الكابتة . ونميل إلى تأكيد أثر القوى الكابتة فى الصورة النهائية للحلم . فهو يعتبر من أحلام العقاب أكثر منه تحقيقاً لرغبة . وفيه نكوص وارتداد إلى مرحلة بدائية ؛ وكأنما يمر الحالم بفترة تنصيبه مراهقاً . وسقوط السن فى الحلم بوصفه إفصاح السن عن القوى الكابتة للعقل ؛ يقوم فى الحلم بنفس الوظيفة التى يؤديها خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين عند البدائيين . فكما أن هذه العادة البدائية تحقق غرضاً للسلطة الضابطة فى القبيلة . كذلك يعبر فقدان الأسنان فى الحلم عن وطأة الذات العليا أو الرقيب . ومن المعروف أن الذات العليا تستمد كيانها من مصادر السلطة الثابتة وهى : سلطة الأب . ومما ينحدر إلى الفرد من قواعد الأخلاق وآداب المجتمع . ومن المعروف كذلك أن الذات العليا تقوم بوظيفة الرقيب على (الأنا) ، وعلى النزعات الغريزية . فهى الناقد الخلقى الأعلى الذى يُشعر (الأنا) بالخطيئة . والذى يقوم بعملية الزجر . فإذا قلنا حينئذ أن حلم خلع السن قمع وزجر من الذات العليا . بدا وكأنما امتصت الذات العليا خصائص السلطة واسقطتها على الذات . فالذات العليا تعاقب الذات (الأنا) فى هذا الحلم ، تعاقبها بخلع السن ! وقد يبلغ اشتداد وطأة الذات العليا إلى الحد الذى يخلع فيه السن فعلا لا كحلم وحسب . « فأحياناً ينتهى حلم سقوط السن ، بأن يستيقظ الحالم فيتناول من فمه سناً مخلوعة ! »[1] ولا يشترط أن تعاقب الذات العليا ـ الذات (الأنا) على رغباتها الجنسية ، فقد تعاقبها على نزعاتها العدائية المكبوتة . أو تعاقبها لأنها انتهكت حرمة التابو ، أو ما يقابل التابو فى مجتمعنا الحديث من النواهى الخلقية والتحريمات والقوانين الدينية . . . ويمكن اعتبار سقوط السن فى الحلم تحذيراً وتذكيراً بالقيم الخلقية وتقاليد المجتمع . . . والمقدسات .

(١) S. Freud : The Interpretation of Dreams, P. 96,221.

وتتلخص أوجه الاختلاف بين تفسير فرويد لهذا الحلم وتفسيرنا له فيما يأتى : —

أولا : يذهب فرويد إلى تأويل حلم فقدان الأسنان تأويلا جنسياً . « فالقوة الدافعة لهذه الأحلام عند الرجال إن هى إلا رغبات المراهقة فى الاستمناء » . نميل نحن إلى تأكيد أثر القوى الكابتة فى الصورة النهائية للحلم .

ثانياً : تأكيدنا لأثر القوى الكابتة يقضى بالاعتراف ضمناً بوجود النزعات التى تكبتها هذه القوى الكابتة . ومع تسليمنا بهذه النزعات المكبوتة ، فلا يشترط أن تكون جنسية . فقد تتضمن النزعات الغريزية الأخرى ، كالنزعات العدائية مثلا .

ثالثا : تفسير فرويد الجنسى لهذا الحلم معناه أنه تعبير عن رغبات (ألْهى — Id) . حقيقة لم يغفل فرويد أثر القوى الكابتة . إذ نسب إليها « الإبدال من أسفل إلى أعلى » أما تفسيرنا فيتلخص فى أن الذات العليا تتوعد الذات (الأنا) فى الحلم بهذا العقاب وهو خلع السن ، لأنها خالفت التابو أو ما يقابله فى مجتمعنا من النواهى الخلقية والمحرمات التقليدية . أو تعاقبها على تمنياتها اللاشعورية الشريرة.

رابعاً : وإذا كان التفسير الجنسي لهذا الحلم قد جاء في أولى كتب فرويد ، فهو يمثل التحليل النفسي في طوره الأول . أما تفسيرنا فهو إذ يهتم بالنزعات العدوانية من ناحية ، وبأثر الذات العليا من ناحية أخرى ، يتمشي مع المرحلة الراهنة التي وصل إليها التحليل النفسي . ويوضح الأستاذ الدكتور يوسف مراد الصورة التي اتخذها التحليل النفسي في طوره الأخير بقوله : « في هذه المرحلة الجديدة تحول اهتمام التحليل النفسي من دراسة مظاهر الدافع الجنسي إلى مظاهر الدافع العدواني ، ومن دراسة المضمون النفسي المكبوت إلى دراسة الأنا الشعورى وموقفه من عالم الغرائز اللاشخصية من جهة ، ومن الأنا الأعلى من جهة أخرى »(١)

هذا التوسع فى دوافع الحلم بحيث تشتمل على مختلف النزعات الغريزية ، وتأكيد أثر القوى الكابتة فى الصورة النهائية للحلم : اكتسبناه من التحليل الوظيفي لعادة خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين . ومن الربط بين طرائق التفكير عند البدائيين وتفكير اللاشعور . وإذا كان روجيه باستيد قد استعار فكرة الرموز

---

(١) الدكتور يوسف مراد : « منهج التحليل النفسى وطبيعته التكاملية » فى مجلة علم النفس ، عدد يونيو — سبتمبر سنة ١٩٥٢ مجلد ٨ ص ٢٥ .

الجنسية ، من ميدان التحليل النفسي ، وطبقها على الظاهرة الأنثروبولوجية وهي خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين ، فما الذى يمنعنا ، من الناحية المنهجية ، من استعارة وظيفة هذه العادة الغريبة من ميدان الأنثروبولوجيا لتطبيقها على الظاهرة النفسية وهي الحلم ؟

أوفضلا عن أننا جعلنا التمسك بالمنهج رائدنا ، فهناك طريقة ثانية للتثبت من صدق هذا التفسير الجديد لحلم فقدان الأسنان ، وهى صلاحية هذا التفسير للتطبيق على التأويل الشعبي الذائع لهذا الحلم بأنه ينذر بوفاة قريب .

٨ — تطبيق هذا التفسير على التأويل الشعبى

ليس يكفى تأويل الحلم ، وإنما ينبغى تفسير التأويل الشعبى له كذلك . وحيث أن هذا الحلم النموذجى يؤول فى كل مكان تقريباً (بحسب قول الأستاذ سليجمان) بمعنى فقدان قريب أو صديق ، وحيث أن هذا التأويل قديم إذ كان معروفاً عند أرطميدورس . . . لذلك يمكن اعتباره من عداد الأساطير . والأسطورة كالحلم لكل منهما دوافع لاشعورية . ويبدو أن هناك حتمية فى اختيار دلالة الرمز فى هذا الحلم بأنها وفاة قريب . وليس فى هذا التأويل الشعبى مصادفة . ولا يعنى ذلك بحال صدق الحلم كنذير ، أو أن وفاة قريب مما يجوز توقعه على أثر هذا الحلم . ولكننا إذ ننكر القيمة التنبؤية للحلم ، لا نستطيع إغفال هذا التأويل الأسطورى للرمز بافتراض أنه من الرواسب الفكرية أو من الخرافات العقيمة ، وذلك لأن التوزيع الجغرافى لمدى انتشاره ، والتتبع التاريخى لمدى قدمه ، يحملنا على الاهتمام به ، ويحول بيننا وبين اعتباره بقية Survival فقدت وظيفتها . وإذا كنا ننكر على القدماء ما يضفونه على هذا الحلم من دلالة تنبؤ بالمستقبل ، نرى أن لهذا التأويل الميثولوجى دوافع لاشعورية تحتاج إلى تفسير . وإذا نجحنا فى الكشف عن هذه الدوافع ، اتضحت لنا الحتمية فى اختيار القدماء لهذه الدلالة بالذات وهى وفاة قريب .

مما يساعد على معرفة الدوافع اللاشعورية لهذا التأويل الميثولوجى أن له نظير فى أوهام العصابيين . فوفاة قريب تنسب لدى العصابى المصاب بالعصاب القهرى Compulsion Neurosis ، بأنها نتيجة لانتهاك العصابى لحرمة التابو ، وعدم التزامه المحظورات والتحريمات القهرية التى فرضها على نفسه . ففى العصاب القهرى

يتطير المريض من عدم التزام التحريمات ، ويعتقد أنه إذا خرق التابو ، ترتب على ذلك شر مستطير يحيق بقريب أو عزيز لديه . ورد الفعل السائد لهذا العصابى حيال وفاة قريب أو صديق ، هو أن يتهم نفسه بأنه كان سبباً فى وفاته . هذا الشعور المبهم بالذنب ، والنزعة إلى تأنيب النفس ، إفصاح عن القوى الكابتة للعقل . وهذا التأنيب الوسواسى obsessive reproach الذى يتسلط على العصابى ، فيعامل نفسه وكأنه كان سبباً فى وفاة القريب هو نتيجة لرغبة لاشعورية قديمة فى موته[١] . وهذه الرغبة اللاشعورية فى موت قريب هى نتيجة للموقف المزدوج المتناقض ambivalent حيال الأقارب الذى يرى فرويد أنه فى استعداد كل الناس ، ولكن بدرجات متفاوتة[٢] . والقول بالموقف المزدوج المتناقض بإزاء أفراد العائلة والأقارب[٣] ، يصعب تصديقه ويثير الاستنكار . وإشفاق العصابى من وفاة قريب ، إذا هو خرق التابو ، هو بمثابة تعويض[٤] compensation عن الرغبة اللاشعورية السابقة فى موته . ويحل الاشفاق عليه من الموت ، محل تلك الرغبة اللاشعورية الشريرة السابقة فى موته .

وعلى ذلك تبدو الدوافع اللاشعورية لهذا التأويل الشعبى فى الموقف المزدوج المتناقض حيال الأقارب ، وفى العرض الوسواسى الذى يجعل العصابى القهرى يؤنب نفسه عند وفاة قريب ، وكأنه مسئول عن ذلك ، والذى يجعله يشفق من وفاة قريب إذا هو خرق التابو ولم يأخذ نفسه باجتناب المحرمات .

وهكذا تتضح الحتمية فى اختيار دلالة الرمز فى هذا التأويل الشعبى . كما يتضح كذلك أن وطأة الذات العليا تمثلت فى التأويل الشعبى ، كما تمثلت فى حلم سقوط السن ذاتها . وقد ذكرنا أن محك صدق تفسيرنا الجديد لحلم فقدان الأسنان هو صلاحيته للتطبيق على التأويل الشعبى . ويمكن أن نوضح ذلك بطريقة مبسطة على النحو الآتى :

---

(١) S. Freud : Totem and Taboo. Pelican, P. 89.

(٢) Ibid., P. 90.

(٣) أوضح فرويد حقيقة هذا الموقف بما لا يدع مجالا للشك فيه ؛ وذلك بدراسته للأطفال والعصابيين والأساطير والأحلام — راجع فى هذا الصدد :
"The Interpretation of Dreams" P.P. 242-260.

(٤) S. Freud : Totem and Taboo; P. 104.

حيث أن خرق التابو لدى المصاب بالعصادب القهرى = وفاة قريب .
وأن دلالة سقوط السن فى الحلم فى التأويل الميثولوجى = وفاة قريب .
∴ سقوط السن فى الحلم = خرق التابو .

أى أن الحلم بسقوط السن هو نتيجة لانتهاك حرمة التابو (راجع تفسيرنا الجديد للحلم) أو ما يقابل التابو فى مجتمعنا الحديث من النواهى الخلقية والمحرمات التقليدية . (الأمر الذى يترتب عليه — من وجهة نظر العصابى — موت قريب) . وعلى ذلك لا يموت قريب لأنك حلمت بسقوط السن ، وإنما حلمت بسقوط السن لتمنياتك اللاشعورية السابقة لقريب بالموت . أو حلمت بسقوط السن لأنك خرقت التابو (الأمر الذى يتطير منه العصابى ويتوقع بعده وفاة قريب . ومثل هذا التوقع نتيجة للموقف المزدوج المتناقض بإزاء الأقارب . والإشفاق من وفاة قريب هو تعويض عن الرغبة اللاشعورية القديمة فى موته) وبذلك يتضح أن اختيار دلالة الرمز فى هذا التأويل الشعبى لم يأت وليد الصدفة العارضة .

كذلك يمكن تفسير دلالته التنبؤية فى ضوء الشرطية . فوفاة قريب هى حادث خارجى ليس إلى التنبؤ به من سبيل ، وإنما هو وليد المصادفة . ويلوح أن تكرار اتفاق المصادفة بوفاة قريب عقب الحلم بسقوط السن يؤدى إلى أن يصبح سقوط السن فى الحلم رمزاً مرتبطاً بوفاة قريب ، ومنبهاً شرطياً ينذر بذلك ويبعث على التطير . وكلما شاءت المصادفة أن يسمع المتطير بوفاة قريب بعد أن انتابه هذا الحلم . رسخ الاعتقاد فى صدق الحلم كنذير . ويؤدى تكرار اتفاق المصادفة إلى تثبيت هذه الاستجابة المكتسبة الشرطية .

فهذا التأويل الميثولوجى ، حينئذ ، ما كان ليبقى على وجه الزمان وتتناقله الأجيال ، وما كان ليذاع وينتشر لو لم تكن له دوافع لاشعورية ، ولو لم يرتبط الرمز فى الحلم (وهو فقدان السن) ارتباطاً شرطياً مع دلالته المستقبلة وهى فقدان قريب .

وقد سبق لنا أن أفدنا من ضم هاتين الأداتين القويتين وهما : الشرطية ، والدوافع اللاشعورية إحداهما إلى الأخرى وأخذنا بهما معا فى دراستنا للتطير[1]

---

(١) « سيكولوجية التطير » عدد يونيو سنة ١٩٤٩ ، « اختبار التطير » عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩ من مجلة علم النفس مجلد ٥ .

والسحر[١] ، وفى تفسير حلم نموذجى آخر هو الحلم (بالحرامى)[٢] الذى يعتقد العامة أنه يعلن عن حضور ضيف . وتوصلنا بهما إلى نتائج فاقت ما كان مقدراً لها من قبل . وعند ما بدأنا فى كتابة هذا الموضوع ، كان غرضنا عرض مختلف الآراء التى قيلت فى تفسير حلم فقدان الأسنان . فإذا بنا ننتهى منه وقد فسرنا عادة خلع السن عند البدائيين ، وساهمنا بتفسير جديد لهذا الحلم ، وفسرنا تأويله الشعبى كذلك . فإذا كان التوفيق حليفنا ، فلأن التمسك بالطريقة رائدنا .

نجيب يوسف بدوى

حول مشكلة الوراثة والبيئة

لا بد أن يجد كل بحث علمى ، إن عاجلا أو آجلا ، ميدانه التطبيقى إذ أن الواقع وما يكتشفه من غموض وإشكال هو الذى يوحى إلى العالم بموضوع بحثه ويدفعه إلى مواصلة البحث لإزالة الغموض قدر المستطاع أو إيجاد حل للإشكال أو على الأقل الكشف عن أنجح الوسائل للوصول إلى الحل المنشود . وتتفاوت المسائل العلمية من حيث قرب اتصالها بالميدان التطبيقى أو بعدها عنه . ومن المشكلات العلمية التى لا تزال رهن البحث والمناقشة والتى تربطها صلات وثيقة جداً بميادين التطبيق مشكلة الوراثة والبيئة . وهذه الميادين حيوية للغاية إذ أنها تشمل كل ما يتعلق بالتربية والأخلاق والإصلاح الاجتماعى . فموضوع التطبيق ليس المادة الجامدة بل الإنسان فى مختلف أطوار حياته ومختلف ميادين نشاطه الفردى والاجتماعى . وبما أن دراسة عوامل الوراثة وقوانينها وكذلك دراسة عوامل البيئة وطرق تفاعلها وتقدير أثر كل عامل منها بالنسبة إلى الآخر وطبيعة التأثير المتبادل بين الوراثة والبيئة لا تزال حديثة العهد ونتائجها قليلة وجزئية فلا غرو أن نجد بعض من يهمهم قبل كل شىء التطبيق فى مجال التربية والسياسة يسرعون فى تأويل بعض النتائج الجزئية المحدودة التى تلائم مذهبهم العملى على أنها حقائق عامة

---

(١) « السحر » عدد يونيو سنة ١٩٥٠ مجلد ٦ .

(٢) « تأويل شعبى لحلم تنبؤى » عدد أكتوبر سنة ١٩٥٠ مجلد ٦ .